الصبر
عند الصدمة الأولى

١٤ يقول الحق سبحانه وتعالى فى الحديث القدسى :

« ابْنَ آدم . إنْ صَبَرتَ واحْتَسَبْتَ عندَ الصَّدْمةِ الأولى لَمْ أرْضَ ثَوابًا دُونَ الجنةِ »(١)

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً(٢) وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾ (الأنبياء)

كلمة « نبلو » أى : نختبر ، فالابتلاء هو الاختبار ، والابتلاء ليس مذموماً فى ذاته ، ولكن المذموم هو غاية الابتلاء أو نتيجته ، فإن نجح فيه الإنسان وصبر فهو محمود ، وإن رسب وفشل فهو مذموم .

فالبلاء هو الاختبار بأية صورة من الصور ، فالطالب الذى استذكر دروسه يكون الامتحان بالنسبة له بلاءً حسنًا ، ومن لم يستذكر يكون الامتحان بالنسبة له بلاءً سيئاً .

إذن : فالابتلاء غير مذموم على إطلاقه ، ولا ممدوح على إطلاقه ، ولكن نتيجة الإنسان فيه :هل ينجح أم لا ؟

والحق سبحانه ليس فى حاجة إلى أن يعلم ليختبر ، ولكنه يختبرنا ليكون

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (١٥٩٧) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه ، قال البوصيرى فى الزوائد: « إسناده صحيح ورجاله ثقات » .

(٢) فتن الذهب : أذابه ليختبر معدنه ودرجة نقائه ليميز الجيد من الردىء، فالفتنة : الاختبار بالنار، واستعيرت لكل اختبار شديد أو تعذيب بقصد صرف المؤمن عن دينه.

ذلك حجة علينا ، فهو يعلم ما سيحدث منا حتى قبل أن يخلقنا ، ولكنه يريد أن يقيم علينا الحجة .

وكلمة «نبلوكم »المخاطب فيها كل الخلائق :

الغنى والفقير ، والصحيح والمريض : والحاكم والمحكوم ، والذكر والأنثى ، والإنس والجن ..وهكذا .

إذن : كلنا فتنة لبعضنا البعض ، فالغنى والفقير مثلاً كلاهما فتنة للآخر ، فالغنى إذا لم يساعد الفقير ويعطف عليه سيرسب فى اختبار الله له بسبب هذا الفقير .

وكذلك الفقير ، إذا رأى ما عند الغنى من نعم الله عليه فلا يجب أن يحسده أو يحقد عليه ، ولكن يجب عليه أن يقول : ما شاء الله كان .

والصحيح ابتلاء للمريض ، فهل هذا المريض الملقى على فراشه يئن من الألم حينما يرى إنساناً سليمًا صحيحاً ، تتغير نفسه، ويسخط على قدر الله الذى جعله فى هذه الحالة ، ويحقد عى الإنسان الذى عنده صحة ؟ أم أنه يصبر على ابتلاء الله ويرضى بقضائه ، ويدعو لنفسه بالشفاء ولغيره بعدم المرض.

وكذلك الصحيح ، يكون المريض له فتنة ، لأنه هل استخدم صحته فى خدمة المريض والتخفيف عنه ، وشعر بأن صحته نعمة عظيمة من الله وشكره عليها ، أم أنه لم يفعل ؟

واعلم أن الخير بلاء ، كما أن الشر بلاء ، وحين تستخدم الخير فى خدمة منهج الله تعالى ولا تطغى به ، وحين تصبر على الشر ولا تتمرد على قدر الله ، فهذا كله اختبار من الله عز وجل .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ[1] فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ ﴾ (الفجر)

وهذا هو الابتلاء بالخير .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ[2] عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ (الفجر)

وهذا هو الابتلاء بالشر .

وموضع الابتلاء هنا أن هناك أناساً كثيرين عندما يعطيهم الله نعمة يقولون :«ربنا أكرمنا »، وعندما يسلبهم النعمة يقولون :«ربنا أهاننا» .

وكلاهما مخطىء ، مخطئ مَنْ اعتبر النعمة إكراماً من الله ، ومخطىء أيضاً من اعتبر سلب النعمة إهانة من الله .

إن النعمة لا تكون إكرامًا من الله ، إلا إذا وفَّقك الله فى حسن التصرف فى هذه النعمة ، ولا يكون سلب النعمة إهانة إلا إذا لم يوفقك الله فى أداء حق النعمة ، وحق النعمة فى كل حال يكون بشكر المنعم ، وعدم الانشغال بها عمَّنْ رزقك إياها .

إذن : فالذى نظر إلى المال ، وظن أن الغنى إكرام ، ونظر إلى الفقر والتضييق وظن أنه إهانة ، هذا الإنسان لايفطن إلى الحقيقة .

---

(١) نعَّمه : جعله فى سعة من العيش وفى ترف ورفاهية. قال تعالى : ﴿ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ ﴾ (الفجر) افتخار بالنعم كأنه مستحق لها بذاته.

(٢) قدر الله الرزق : جعله ضيقاً على قدر الحاجة لا يزيد ، ومنه قوله ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴿١٦﴾ ﴾ (الفجر) أى : ضيَّقه وجعله على قدر الحاجات الضرورية لا يزيد عليها.

والحقيقة يقولها الحق سبحانه : ﴿ كَلاَّ ﴾ (الفجر: ١٧)

أى :أن هذا الظن غير صادق ، فلا المال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهانة.

فالابتلاء قد يكون فى الأموال ، وقد يكون فى الأنفس .

فمتى يكون المال دليل كرامة ؟

يكون المال دليل كرامة إن جاءك وكنت مُوفَّقاً فى أن تؤدى مطلوب المال عندك للمحتاج إليه ، وإنْ لم تُؤدِّ حق الله فالمال مذلة لك وإهانة .

فقد أكون غنياً لا أعطى الحق ، فالفقر فى هذه الحالة أفضل ، ولذلك قال سبحانه للاثنين ﴿ كَلاَّ ﴾ (الفجر: ١٧)

وذلك يعنى . لا إعطاء المال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهانة .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ (الاعراف)

فلله سبحانه مطلق الحرية فى الاختبار ، فهو سبحانه يختبر بالنعمة ليعلم واقعاً منك ؛ لأنه سبحانه عالم به ، من قبل أن تعمل ، وسبحانه وتعالى يختبر بالنعمة ليرى ،أتغرُّنا الأسباب فى الدنيا عن المسبِّب الأعلى الذى وهبها .

فالواجب أن نشكر النعمة ونؤديها فى مَظَانِّ الخير لها ، فإن كان العبد سيؤديها بالشكر فقد نجح ، وإن أداها على عكس ذلك فهو يرسب فى الاختبار.

إذن : فهناك الابتلاء بالنعم ، وهناك الابتلاء بالنقم ، والابتلاء بالنقم ليرى الحق : هل يصبر العبد أو لا يصبر ، أى : ليراه ويعلمه واقعًا حاصلاً ، وإلا فقد علمه الله أزلاً [1].

(١) الأزل : القدم.

فمجرد الابتلاء ليس شراً ، ولكن الشر هو أن تسقط فى الابتلاء ، والمهم أن ينجح المؤمن فى كل ابتلاء يُبتلى به ، حتى يواجه الحياة صلباً ، ويواجه الحياة قوياً ، ويعلم أن الحياة مَعْبر ، ولا يشغله المعبر عن الغاية .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (البقرة)

والمصيبة هى الأمر الذى ينال الإنسان منه المشقة والألم ، وهى مأخوذة من إصابة الهدف ، والمؤمن يستقبل المصيبة واثقًا أنها على قَدْر إيلامها يكون الثواب عليها .

ولذلك عندما فرح الكفار بما يصيب المسلمين فى بعض المعارك ، أنزل الله ذلك القول الحق للمؤمنين:

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا .. ﴿٥١﴾ ﴾ (التوبة)

أى : قولوا أيها المؤمنون : إنه لن يحدث لنا إلا ما كتبه الله

وعندما نتأمل قول الحق سبحانه : ﴿ إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا .. ﴿٥١﴾ ﴾ (التوبة)

أى : أن المسألة ستكون لحسابنا ، وسنأخذ عليها حُسْن الثواب من الله ، ولم يقل الحق : كتب الله علينا ، لأنها لو كانت كذلك لكان معناها أنها جزاء وعقاب من الله.

وأىُّ أمر يصيب الإنسان ، إمَّا أن يكون له دخل فيه ، وعند ذلك لا يصح أن يجزع [1] لأنه هو الذى جاء بالأمر المؤلم لنفسه ، وإمَّا أن تكون مصيبة لا دخل له بها ، وحدثت له من غيره مثلاً.

(١) الجزع : ضد الصبر. وقد جزع من الشىء، وأجزعه غيره.

وعند ذلك عليه أن يبحث عن سببها : أعدلاً أم ظلماً ؟

إن كانت عدلاً فهى قد جبرت الذنب ، وإن كانت ظلماً فسوف يقتص الله له ممن ظلمه ، وعلى هذا فالمؤمن فى كلتا الحالتين رابح .

إذن : فالمؤمن يستقبل كل مصيبة متوقعاً أن يأتى له منها خير ، وعلى كل مؤمن أن يُقيِّم نفسه تقييماً حقيقيًا : هل لى على الله حق ؟

أنا مملوك لله وليس لى حق عنده ، فما يُجريه علىَّ فهو يُجريه فى مُلكه هو . ومَنْ لا يعجبه ذلك فليتأبَّ على أى مصيبة ، ويقول لها « لا تصيبينى» ولن تستطيع دَرْء أى مصيبة .

وما دُمْنا لا نستطيع أن نمنع وقوع المصائب والأحداث ، فلنتقبلها ـ كمؤمنين ـ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد بنسبتنا إليه أن يُعزَّنا ويكرمنا .

إنه يدعونا أن نقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (البقرة)

إننا بهذا القول ننسب ملكيتنا إلى الله ونقبل ما حدث لنا ، ولابد لنا هنا أن نأتى بمثال ـ ولله المثل الأعلى ـ هل رأيت إنساناً يفسد مُلكه ؟ أبداً .

إن صاحب الملْك يعمل كل ما يؤدى إلى الصلاح فى ملكه ، وإن رأى الناس في ظاهر الأمر أنه فساد ، فما بالنا بالله سبحانه وتعالى ونحن مِلْك له ، وهو سبحانه لا يُعرِّض ملكه أبداً للضرر ، وإنما يقيمه على الحكمة والصلاح .

فقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (البقرة)

أى : نحن مملوكون لله ، ونحن راجعون إليه ، وحتى إن كان فى مصائب الدنيا ظلم لنا وقع علينا من إنسان ، فسوف نأخذ ثواب ما ظُلِمْنا فيه عند الرجوع إلى الله.

إذن : فنحن لله ابتداء بالملكية ، ونحن لله نهاية فى المرجع ، وهو سبحانه ملك القوسين ، الابتداء والانتهاء.

ولذلك علَّمنا رسول الله عند أى مصيبة تصيب الإنسان أن يسترجع ، أى أن يقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) ﴾ (البقرة)

وزادنا أيضاً أن نقول : « اللهم أجُرنى فى مصيبتى، واخلُفْ لى خيراً منها»(١).

إنك إذا ما قلتها عند أى مصيبة تصيبك فلابد أن تجد فيما يأتي بعدها خيراً منها ، وحتى إن نسى الإنسان أن يقول ذلك عند وقوع المصيبة ثم تذكرها وقالها فله جزاؤه ، كأنه قالها ساعة المصيبة .

فكل ما كتبه الله فهو لصالح المؤمنين به ، إما أدباً وإما ثواباً ،وإما ارتقاء فى الحياة ، ولذلك فهو خير .

ومن هنا كانت الآية الكريمة ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ .

وما كتب الله للمؤمن إنما هو فى صالحهم .

---

(١) عن أم سلمة قالت : قال أبو سلمة قال رسول الله ﷺ : « إذا أصاب أحدكم مصيبة فليقل : إنا لله وإنا إليه راجعون عندك احتسبت مصيبتى وأجرنى فيها وأبدلنى ما هو خير منها. فلما احتضر أبو سلمة قال : اللهم اخلفنى فى أهلى بخير فلما قبض قلت : إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم عندك أحتسب مصيبتى فأجرنى فيها. قالت : وأردت أن أقول : وأبدلنى خيراً منها، فقلت : ومن خير من أبى سلمة ؟ فما زلت حتى قلتها، فلما انقضت عدتها خطبنا أبو بكر فردَّته، ثم خطبها عمر فردَّته فبعث إليها رسول الله فقالت : مرحباً برسول الله ﷺ وبرسوله، أخبر رسول الله ﷺ أنِّى امرأة غَيْرى، وانى مُصْبية (أى : عندها صبيان) ، وإنه ليس أحد من أوليائى شاهداً، فبعث إليها رسول الله ﷺ : أما قولك : إنى مصبية فإن الله سيكفيك صبيانك، وأما قولك : إنى غَيْرى فسأدعو الله أن يذهب غيرتك، وأما الأولياء فليس أحد منهم شاهد ولا غائب إلا سيرضانى » أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٣١٣).

والمؤمن يعلم أن كل مصيبة فى الدنيا إنما يجزيه الله عليها حُسْن الجزاء ، ويستقبل هذا المؤمن قضاء الله تعالى بنفس راضية ، لأن ما يصيبه قد كتبه الله عليه ، وسوف يوافيه بما هو خير منه .

وهناك بعض من المؤمنين قد يطلبون زيادة الابتلاء .

إذن : فالمؤمن كل أمره خير ، وإياك أن تنظر إلى من أصابته الحياة بأية مصيبة على أنه مصاب حقاً ؛ لأن المصاب حقاً هو مَنْ حُرِم من الثواب .

ونحن نجد فى القرآن [1] قصة العبد الصالح الذي قتل غلامًا كان أبواه مؤمنين ، فخشى العبد الصالح أن يرهقهما طغيانًا [2] وكفرًا . فهذا الولد كان فتنة ، ولعله كان سيدفع أبويه إلى كل محرم . ويأتى لهما بالشقاء .

إذن : فالمؤمن الحق هو الذى يستحضر ثواب المصيبة لحظة وقوعها .

ومنا من قرأ قصة المؤمن الصالح الذى سار فى الطريق من المدينة إلى دمشق، فأصيبت رِجْله بجرح و تلوث هذا الجرح ، وامتلأ بالصديد مما يقال عنه فى اصطلاح الطب « غرغرينة ».

---

(١) وذلك يحكيه القرآن فى قوله تعالى عن موسى عليه السلام وقصته مع العبد الصالح ـ الذى يقال إنه الخضر عليه السلام ـ : ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ (الكهف)

(٢) الطغيان : الظلم وتجاوز الحد فى العصيان ، وأصله من طغيان الماء، قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾ (الحاقة) أى : زاد وتجاوز الحد فأغرق البلاد.

وقرر الأطباء أن تُقطع رِجْله ، وحاولوا أن يعطوه مُرقِّداً ، أى : مادة تخدره ، وتغيب به عن الوعى ، ليتحمل ألم بَتْر الساق ، فرفض العبد الصالح وقال : إنى لا أحب أن أغفل عن ربى طرفة عين .

ومثل هذا العبد يعطيه الله سبحانه وتعالى طاقة على تحمُّل الألم ؛ لأنه يستحضر دائماً وجوده في معية الله ، ومُفَاضٌ عليه من قدرة الله وقوته سبحانه.

وحينما قطع الأطباء رِجْله ، وأرادوا أن يُكفِّنوها وأن يدفنوها ، طلب أن يراها قبل أن يفعلوا ذلك ، وأمسكها ليقول : اللهم إن كنتُ قد ابتليت فى عضو فإنى قد عُوفِيتُ فى أعضاء .

إذن: فصاحب المصيبة حين يستحضر الجزاء عليها إنما يحيا في متعة ؛ ولذلك لا تتعجب حين يحمد أناس خالقهم على المصائب ؛ لأن الحمد يكون على النعمة ، والمصيبة قد تأتى للإنسان بنعمة أوسع مما أفتدته .

فكل مؤمن يعيش فى منهج الله سبحانه وتعالى فهو يستحضر فى كل أمر مؤلم وفى كل أمر متعب ، أن له جزاءً على ما ناله من التعب ، ثواباً عظيمًا خالداً من الله سبحانه وتعالى .

فالمصائب تأتى للمؤمن لإفادته ، ولكنها لا تأتى للمنافق لإفادته ، فالمؤمن حين يُصاب إما أن يُكفِّر الله به عنه ذنباً ، وإما أن يرفعه درجة .

ورسول الله ﷺ يقول : « ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها ، إلا رفعه الله بها درجة ، أو حَطَّ عنه بها خطيئة »(١).

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٢) وأحمد فى مسنده (٦/ ٤٢) والترمذى فى سننه (٩٦٥) وصححه. وهو من حديث عائشة رضى الله عنها.

لكن المصائب حين تصيب المنافق فهى مَغْرم فقط ، لأن المنافق لا يرجو الآخرة ؛ ولذلك يُقال : إن المصاب ليس مَنْ أصيب فيما يحب ، ولكن المصاب هو مَنْ حُرِم الثواب .

فإن استقبل المؤمن المصيبة بالرضا ، وعلم أن الذى أجراها عليه حكيم ، ولا يجرى عليه إلا ما يعلم الخير وإن لم يعلمه ، فهو ينال الثواب على الصبر والأجر على الرضا ، وهكذا يخرج من دائرة الألم العنيف ، أما غير المؤمن فهو يتمرد على القدر ، وبعدم إيمانه يُحْرم من الثواب .

ولذلك يقول الحق سبحانه يوجه المؤمنين إلى ما يجب أن يفعلوه عندما تواجههم مصائب الدنيا وصعابها :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا(١) وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ (٢) الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (التوبة)

فالحديث هنا عمَّا يصيب الإنسان أو ما يحدث له ، فإن حدث للإنسان شىء يأتى منه خير ، يكون بالنسبة له حسنة ، وإن أتى منه شر يكون من وجهة نظره سيئة.

إذن : فالإصابة هى التقاء هدف بغاية ، إذا تحقق الهدف وجاء بخير فهو حسنة ، وإن جاء بشرٍّ فهو سيئة .

والمصائب نوعان : مصيبة للنفس فيها غريم ، ومصيبة ليس فيها غريم ،

---

(١) المولى : المالك والسيد والمُنعِم المعين الناصر، والوليّ الموالى بالمحبة، ومثله ﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ (آل عمران)، ومثله : ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا.. ﴿٢٨٦﴾ ﴾ (البقرة) أى : أنت سيدنا وناصرنا ووليُّنا.

(٢) توكل على الله : استسلم إليه وفوَّض إليه أمره واعتمد عليه.

فإن اعتدى علىَّ واحد بالضرب مثلاً يصبح غريمى ، وتتولد فى قلبى حفيظة[1] وغضب وضغينة [2] عليه ، وغيظ منه ، وأرغب فى أن أردَّ عليه وأثأر لنفسى منه ، ولكن إن مرضت مثلاً ، فمن هو غريمى فى المرض ؟ لا أحد.

فهذا من المصائب التى ليس للإنسان فيها غريم ، فهى لا تحتاج إلى جهد كبير من النفس ، وإنما تحتاج إلى صبر فقط ، إذ لا حيلة للإنسان فيها .

ونجد الحق سبحانه يقول فى هذا اللون من المصائب :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ[3] الْأُمُورِ (١٧) ﴾ (لقمان)

ونحن نعلم بإيماننا أن كل ما يصيبنا من الله هو الخير ، وأن هناك أحداثاً تتم للتأديب والتهذيب والتربية ، لنسير على المنهج الصحيح فلا نخرج عنه ، فالإنسان لا يُربِّى إلا من يحب ، أما من لا يحب فهو لا يهتم بتربيته ، فما بالنا بحب الخالق لنا ؟

وفى حديث رسول الله ﷺ :

«إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم »[4]

---

(١) الحفيظة : الغضب. والمحفظات : الأمور التى تُحفظ الرجل أى تغضبه إذا وُتِر فى حميمه أو فى جيرانه.

(٢) الضِّغن : الحقد والعداوة والبغضاء . ضغن عليه : حقد عليه وأضمر له العداوة. والضغن : شدة الحقد، وجمعه أضغان.

(٣) العزم : عقد نية القلب على أمر أنت فاعله والاجتهاد فى الأخذ بأسبابه لفعله أو إتمامه. وقال تعالى : ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)﴾ (آل عمران) أى : من الأمور الجادّة الرشيدة التى لا يجوز التردد فيها أو من الأمور العظيمة التى يفعلها أصحاب العزم القوى. وقال تعالى فى شأن آدم عليه السلام : ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾ (طه) أى : صبراً وإرادة قوية وقوة على تنفيذ العهد الذى عهد الله به إليه، وهو عدم الاكل من الشجرة.

(٤) عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله عز وجل إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر ، ومن جزع فله الجزع » أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٤٢٧ ـ ٤٢٩) وأخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٠٣١) والترمذى فى سننه (٢٣٩٦) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط».

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (آل عمران)

أى : وكفى جزاءً عن الصبر أن تكون محبوبًا لله ، فنحن قد نحب الله لنعمه التى أنعمها علينا ، ولكن المسألة ليست فى أن تحب الله أنت ، وإنما فى أن تصير بتطبيق منهجه فيك محبوباً لله .

إذن : فلو أن الناس فطنوا إلى قول الله ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ (آل عمران) لقالوا : كفى بالجزاء عن الصبر أن نكون محبوبين لله ، حين أصابهم ما أصابهم .

صحيح أن الإصابة لم تصنع فيهم وهناً [1] أو ضعفاً أو استكانة ، وهذا معناه أن فيهم مسكة اليقين بالله ، ومسكة [2] اليقين بالله تجعلهم أهلاً لإمداد الله ، فليس لك إلا أن تصبر على ما أنت فيه لتعرف مدد الله لك .

ومدد الله لك لا يتجلى بحق إلا وقت الضعف ؛ لأنك وقت قوتك قد تعمل مثل الذين قيل فيهم :

﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ [3] نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ

---

(١) وهن : ضَعُف. قال تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .. ﴿٤﴾ ﴾ (مريم) أى : ضعف كناية عن العجز وكبر السن وإظهار الشكوى من الضعف للاسترحام. وقال تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ .. ﴿١٤﴾ ﴾ (لقمان) أى : ضَعْفاً على ضَعْف ، فالضعف يتزايد كلما ثقل الحمل.

(٢) رجل ذو مُسْكة ومُسك أى : رأى وعقل يرجع إليه، وفلان لا مُسْكَة له، أى لا عقل له. ويقال : ما بفلان مسكة أى ما به قوة ولا عقل. ويقال : فيه مُسْكة من خير، أى : بقية (لسان العرب ـ مادة : مسك).

(٣) خوَّله كذا : مَلَّكه إيَّاه مُتفضِّلاً عليه بغير عوض، قال تعالى : ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ (الأنعام).

عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٩) ﴾ (الزمر)

لأن الذى يعيش دون منهج يدعو الله إن أصابه الضر ، فإذا ما أنجاه الله ادعى أن النجاة إنما كانت بأسباب امتلكها هو ، وإذا ما أعطاه الله نعمة من النعم زاد فى الادعاء ، وزعم أن هذه النعمة مصدرها علم من عنده ، ولا ينسب ذلك إلى الموجد الحقيقى وهو الله تعالى ، إنه نسى أن كل نعمة هى مجرد اختبار من الله .

هؤلاء الصابرون على ابتلاءات الله لهم قال عنهم الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ (١) مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾ (البقرة)

كلنا نعيش برحمات الله ، حتى الكافر يعيش على الأرض برحمة الله ، ويأخذ أسباب حياته برحمة الله ، والنعم والخيرات التى يعيش عليها تأتيه بسبب رحمة الله ، والمؤمن يأخذ نعم الدنيا برحمة الله ، ويزيد الله له بالبركة والاطمئنان.

والاطمئنان نعمة كبرى ، فمن يَعِشْ في هذه الحياة وهو مطمئن إلى غاية أفضل من هذه الحياة ، فهذا لون عظيم من الاطمئنان .

فالصلاة من الله عطاء الرحمة والبركة .

***

(١) الصلاة تأتى بمعنى الدعاء والرحمة والتكريم والتعظيم، ويقول العلماء : الصلاة من الله رحمة وإحسان ومغفرة ونعمة وقبول. والصلاة من الملائكة : استغفار.